نظرية الإعتمادية"Dependency Theory"

2020 / 8 / 27

كتبت قبل أيام عن "من يكون سمير أمين !!" فعلق أحدهم متسائلاً نيف أكتب عن سمير أمين دون أن أتعر ض لتنظيراته العديدة !! كانت مقالتي عمن يكون سمير أمين ولبست عماذا قال سمير أمين.

سمير أمين قال مقالات كثيرة يقتضي نقدها كتابة مجلدات وهذا أمر جهيد لا تستحقه . مع ذلك يترتب علي تبريراً لموقفي الإتهامي والمعارض لسمير أمين أمام القراء على الأقل لأن أستدل على الإطار الكلي الذي رسم أمين داخله كل خطوط تنظيراته بألوانها الفاقعة.
من المعلوم تماماً أن كارل ماركس كان قد بنى مشروعه حول مستقبل البشرية تبعاً لنظريته في التطور الإجتماعي ليس على مجرد افتراضات مسبقة بل على تحليل مادي عياني معمق والذي ما زال موضع تقدير كبار علماء السياسة والإقتصاد والفلسفة حتى بابا روما بندكتوس شهد يقول ليس مثل ماركس من حلل النظام الرأسمالي . بالتحليل المادي المعمق وجد كارل ماركس أن النظام الرأسمالي هو نظام عالمي (World System) وبناء علية ينتهي النظام الرأسمالي بثورة دائمة (Permanent Revolution)تقوم بها البروليتاريا في مركز النظام الرأسمالي ولا تنتهي قبل أن تنتصر الثورة في كافة دول العالم.

في أكتوبر 1917 انتفض البلاشفة بقيادة فلاديمير لينين يستكملون أهداف الثورة البورجوازية في فبراير 1917 بعد أن تخاذل قادتها في تحقيق شيئاً من أهدافها . اليورجوازية الروسية الهشة بمختلف أطيافها رفضت البلاشفة يقودون الثورة البورجوازية – وهو ما قررته الأممية الثانية في العام 1912 – وذهبوا بعيدا وأعلنوا الحرب المسلحة تحت شعار "الموت للبلاشفة" مؤتلفين مع بقايا القيصرية والإقطاع . التفت جماهير العمال والفلاحين حول البلاشفة ووسحقوا الطبقات المعادية.
في مارس 1919 افتتح لينين الإجتماع التأسيسي للأممية الشيوعية الثالثة (COMINTERN) وأعلن الثورة الشيوعية العالمية الدائمة ومركزها موسكو بعد أن خانت الأحزاب الاشتراكية الطبقة العاملة في دول غرب أوروبا وشاركت في الحرب تأكيداً لمصالح الإمبرياليين . المآثر العظمى التي حققها البلاشفة خلال ثلاثين عاماً فقط (52-1922) بقيادة قائد البروليتاريا نسيج وحده يوسف ستالين ستظل صفحات فريدة في سجل التاريخ تستوقف المؤرخين الديوقراطيين بانشداه شديد.

في 28 فبراير 53 جرى اغتيال ستالين بالسم من قبل رفاقه في القيادة وتبع ذلك انقلاب عسكري عمل على عزل الحزب بقيادة المتعاون خروشتشوف وإلغاء كافة مقررات مؤتمر الحزب التاسع عشر، وفي العام 56 طلب خروشتشوف جلسة خاصة بعد انتهاء المؤتمر العشرين حبث وقف يخطب خطاب العهر والخيانة تحميه حراب العسكر يندد بإيقونة العمل الشيوعي ويدين الدولة السوفيانية التي بناها ستالين بالقمع وتكميم الأفواه . في يونيو 57 بعد أن قرر المكتب السياسي للحزب تجريد خروشتشوف من وظائفه قام العسكر بانقلاب ثان وطردوا 7 من مجموع 9 أعضاء في المكتب السياسي، وفي العام 59 قرر مؤتمر الحزب الحادي والعشرون قطع العلاقة العصوية بين ثورة التحرر الوطني والثورة الاشتراكية خلافاً للمبدأ اللينيني القائل بالوحدة العضوية للثورنين، وفي العام 1961 قرر المؤتمر الثاني والعشرون تفكيك دولة دكتاتورية البروليتاريا التي هي الدمغة الماركسية الوحيدة للثورة الإشتراكية . في العام 53 بدأ لهيب الثورة الإشتراكية يخبو وانطفأ تماماً مع تفكيك دولة دكتاتورية البرزليتاريا في العام 61 .
هذه الحقائق التاريخية الهامة والقاطعة في تقريرمستقبل البشرية تقول بذاتها أن الاتحاد السوفياتي دولة دكتاتورية البروايتاريا مركز الثورة الاشتراكية العالمية فيما قبل الخمسينيات ليس هو الاتحاد السوفياتي المتصالح مع القوى الإمبريالية فيما بعدها ؛ وهذا أمر ترتب عليه قيام عشرات الإنقلابات العسكرية الدموية الرجعية في الستينيات في الدول المستقلة حديثاً كأندونيسيا والعراق وسوريا ومصر والسودان والجزائر وفي قبرص والكونغو وغانا وفي الأرجنتين والتشيلي ؛ حتى كان أن وصل الأمر بالرئيس السوفياتي ليونيد بريجنيف لأن يستعطف قادة الدول الرأسمالية الامبريالية الكبرى في مؤتمر هلسنكي 1975 لأن "نلتقي في منتصف الطريق فلا يخسر كلانا". النظام السوفياتي فيما بعد الخمسينيات يؤكد استعداده لحماية مصالح الإمبريالية – ذلك كان موقفه في هزيمة مصر 67 !!
ما فاقم من خطورة الإنقلا ب على الإشتراكية في الاتحاد السوفياتي هو أن العصابات الحاكمة الجديدة في الحزب الشيوعي حرصت أشد الحرص على طمس الوقائع المتوالية للإنقلابب مثيل حفظ مقررات المؤتمر التاسع عشر للحزب في صندوق

حديدي مقفل لا يفتحه غير الرئيس السوفياتي – جهدت كثيرا في الثمانينيات كي أحصل على وقائع مؤتمر الحزب التاسع عشر وهو آخر مؤتمر يحضره ستالين وفشلت مع أن قرارات الحزب يجب أن تكون علنية في الأصل.

كيف لنا أن نعتمد تنظيرات سمير أمين الذي قصر كل حياته الفكرية في نقد الثورة الإشتراكية وهو يجهل تماماً وقائع الإنقلاب على الإشتراكية في الاتحاد السوفياتي في خمسينيات القرن الماضي وظل يعتمد على أن اشتراكية ستالين هي نفسها اشتراكية خروشتشوف !؟ هل تحدث يوماً سمير أمين عن إلغاء دكتاتورية البروليتاريا في الاتحاد السوف6ياتي في العام 61 واستبدالها بـ "دولة الشعب كله" . سير أمين لم يقل كلمة واحدة عن "دولة الشعب كله" التي لا تعني غير وقف البناء الاشتراكي ورفضه.

تكاثر نقاد الماركسية اللينينية والإشتراكية السوفياتية في العقود الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين وكان سمير أمين أبرز هؤلاء النقاد . الدالة الثابتة التي تدل على أن أحداً من هؤلاء النقاد بمن في ذلك سمير أمين نفسه ليس مؤهلاً للقيام بهذه المهمة التي تقتضي فيما تقتضي ليس التفقه بعلم الماركيسية الدقيق والصعب فقط بل بقراءة تاريخ ثورة أكتوبر قراءة دقيقة وموضوعية أيضاً . أحداً من هؤلاء النقاد لا بل ومن الأحزاب الشيوعية أيضا لم يعرف ولم يبحث لأن يعرف أسباب انهيار الاتحاد السوفياتي وهو الدليل القاطع على أنهم لم يقرأوا تاريخ الاتحاد السوفياتي وتنتفي ذبلك أهليتهم لنقد المشروع اللينيني أو لأن يكونوا شيوعيين حقيقيين ؛ لماذا وقف ستالين في الساحة الحمراء في الاحتفال بذكرى ثورة أكتوبر الرابعة والعشرين في 7 نوفبر 41عندما كانت موسكو مطوقة بـ 4.5 مليون جندياً نازيا مسلحين بأرقى أنواع الأسلحة آنذاك وقف يؤكد للمسكوبيين الذين بدأوا يهربون من موسكو خشية سقوطها بأيدي وحوش النازية، يؤكد ألا خوف على سقوط موسكو وأن الاتحاد السوفياتي ما زال قادرا على سحق قطعان النازية . بينما بالمقابل وقف ستالين في مؤتمر الحزب التاسع عشر في أكتوبر 52 يحذر من أخطار جدية تهدد مصائر ثورة أكتوبر وكان ذلك بعد أن خرج الاتحاد بالسوفياتي من الحرب العالمية كأقوى قوة في الأرض وأنجز مأثرة إعادة الإعمار خلال فترة قصيرة نسبياً . هذا لغز صعب على التفكيك . من لا يفككه ليس له أن يتفوه بحرف في نقد الإشتراكية السوفياتية . لقد أساء سمير أمين لنفسه عندما ادعى مؤخراً أن انهيار الاتحاد السوفياتي كان بسبب التصنيع السريع 1928 – 38 الأمر الذي اضطره إلى التخلي عن برنامج بوخارين القاضي بتنمية الفلاحة .. "أيها الفلاحون إغتنوا بأنفسكم. "!
المستهجن حقاً هو أن سمير أمين قضى العمر كله يراجع الماركسية اللينينية وينتقد الإشتراكية السوفياتية دون أن يقرأ صفحة واحدة من تاريخ الإتحاد السوفياتي الأمر الذي يحكم على أن كل نقوداته هي من خارج الموضوع . يجمع المتخصصون في العسكتاريا على أنه لولا التصنيع السريع في الثلاثينيات ونقل المصانع مع بداية الحرب من روسيا الأوروبية إ'لى روسيا الأسيوية لسقط الاتحاد السوفياتي خلال أسابيع قليلة تحت الاحتلال النازي كما سقطت فرنسا . في السنة الثانية للحرب كانت الأسلحة السوفياتية تتفوق على الأسلحة النازية من صناعة القارة الأوروبية بأكملها بنسبة ثلاثة أضعاف كماً ونوعاً.
في العام 1957 اقترح خروشتشوف إحياء برنامج بوخارين الزراعي المتمثل بخطة "إحياء الأراضي البكر والبور" وهو ما اقتضاه القيام بانقلاب عسكري ضد الحزب وطرد قيادة المكتب السياسي للحزب . إثر تطبيق برنامج خروشتشوف الزراعي بدأ تسارع الانحاد السوفياتي في الانحلال والتفكك . ثمة ضروب من الغباء تثير الضحك لكن ليس مثل الضحك الذي تستدعيه قراءة تفاصيل تطبيق مشروع خروشتشوف كما في مذكراته.

أفتتحت محادثات مؤتمر يالطا في فبراير 45 بونستون تشيرتشل يبشر ستالين بأن شعوب بريطانيا مالت إلى اليسار وهي لذلك لن تجدد له . ويبادر روزفلت إلى التعليق بعد أن لاحظ أن ستالين لم يستبشر خيراً متسائلاً .. ألا يعجبك أن تميل شعوب بريطانيا إلى اليسار يا صديقنا ستالين !؟
بتقديري أن هذه المحادثة الأولية لمؤتمر يالطا تشير إلى أمرين أولهما أن ستالين لم يستبشر خيراً بانتصار حزب العمال في الانتخابات لأنه يعلم تماماً أن قيادة حزب العمال تخترقها المخابرات الأميركية فإرنست بيفن (Ernest Bevin) وزير خارجية حزب العمال كان عميلاً مأجورا للمخابرات الأميركية وهو حال تسلمه الوزارة أنشأ مكتباً في الوزارة مختصاً بمقاومة الشيوعية هو (MI6) وتعاون مع مجرم الحرب ترومان في تشكيل حلف شمال الأطلسي العسكري في العام 49 في حين كان تشيرتشل يدعو لتشكيل تحالف حضاري للشعوب الناطقة بالإنجليزية بوجه الحضارة السلافية الشيوعية . أما الأمر الثاني والمفاجئ للجميع فهو أن روزفلت الذي أنقذ النظام الرأسمالي من الموت الزؤام قد أمسى في نهاية الحرب يسارياً لا بل ستالينياً كما عير عن ذلك في مفكرته اليومية قبل أن يموت في 12 ابريل 45، وفي مؤتمر طهران ديسمبر 43 رفض أن يستضاف في غير السفارة السوفياتية وينام في غرفة قريبة من غرفة نوم ستالين كاسراً بذلك كل قواعد البروتوكول الرسمية .

نحن نستذكر هذه المحادثة الإفتتاحية لمؤتمر يالطا للتدليل على أن شعوب العالم كانت قد أدركت في العام 43 بعد معركتي موسكو وستالينجراد الفاصلتين أن النظام الإشتراكي هو النظام الأقوى والأفضل للإنسان وإلا لما كانت شعوب الاتحاد السوفياتي لتستبسل كل ذلك الاستبسال في مقاومة النازي وتحقق أولى الانتصارات على هتلر في موسكو وستالينجراد في حين لم تصمد فرنسا الإمبراطورية الإمبريالية، ربّة الديموقراطية البورجوازية لم تصمد أمام الغازي النازي أكثر من خمسة أسابيع قبل أن تستسلم.
في مايو 43 والجيوش السوفياتية تستعد لمعركة كورسك (Kursk) التي قصمت العمود الفقري للعسكرية الهتلرية تأكد لقائد الثورة الإشتراكية العالمية يوسف ستالين أن الحرب العالمية الثانية قررت نهاية النظام الرأسمالي العالمي وقد غدا إنتقال العالم إلى النظام الاشتراكي ليس إلا مسألة خواتيم وقد عبر عن ذلك فيما بعد في مؤتمر الحزب 1952 وبناءً علية قرر ستالين أن الأممية الشيوعية لم يعد لها وظيفة تقوم بها فقرر حلها . يُساء تفسير الحل كونه استرضاء لقادة الغرب في حين أن زعماء الغرب كانوا في العام 43 بحاجة لاسترضاء ستالين وليس العكس.

إنعكس ميزان القوى لصالح الغرب في الستينيات وبدأت سياسات ترومان في مقاومة الشيوعية تحقق نجاحات ملموسة . عشرات الإنقلابات العسكرية الدموية الرجعية نجحت في العديد من الدول المستقلة حديثاً وانهزمت مصر هزيمة فاضحة وقتل لومومبا وأخذت موسكو تواجة تمردات اجتماعية في الدول الاشتراكية نفسها ووصل حدود الإستكانة لدولة خروشتشوف "دولة الشعب كله" وليس دولة دكتاتورية البروليتاريا للسماح للمارينز الأمريكان إعتلاء السفن السوفياتية المتجهة إلى كوبا للتفتيش,

في مثل تلك الأجواء، أجواء وفاة الاتحاد السوفياتي قائد الثورة الاشتراكية العالمية وجدت الدول التي نهضت تتحرر وتستقل في حماية الاتحاد السوفياتي الجبار، وجدت نفسها وقد تيتمت كما الأيتام في مأدبة اللئام حيث ليس هناك من يمد يد المساعدة لبناء الإقتصاد المستقل . في تلك المواجهة المصيرية الصعبة قفز بعض قادة هذه الدول مثل أنور السادات في مصر إلى حضن الفاشية الأمريكية . أما عامة الذين ناضلوا طويلاً من أجل التحرر ولإستقلال رفضوا الإستكانة والتخلي عما كانوا قد حققوه، فرأوا أن بإمكان الدول المستقلة حديثاً أن تتطور ذاتياً أي بالإعتماد على الذات، وما كان ذلك ممكناً بغير نظرية الإعتمادية (Dependency Theory) ، هذه النظرية شكلت الإطار الذي رسم امير أمين داخله كل تنظيراته.
نظرية الإعتمادية تسيء فهم النظام الرأسمالي إذ تقول أن النظام الرسمالي يتشكل من عالمين : عالم الجنوب الفقير وعالم الشمال الغني وما ذلك إلا لأن ثروات دول الجنوب تفيض إلى دول الشمال فتغنيها ويظل الجموب فقيراً على فقره .
مثل هذا التنظير الفج يجانب الحقيقة فدول الشمال تدفع أثمان المواد الخام التي تستجلبها من الجنوب . في الحقيقة أن دول الشمال عملت على إغناء دول الجنوب . فالمواد الخام لا قيمة لها إن لم تشترها دول الشمال ؛ وبالإضافة إلى ذلك فقد أوجد الاستعمار أعمالاً مختلفة في المستعمرات وزادت من قوى الإنتاج وتطوير المجتمع مادياً وثقافياً . الاستعمار الأنجلو فرنسي أقام في شرق المتوسط عشرين عاماً فقط عرفت شعوبه خلالها كل أشكال الحياة المدنية، حتى الجنسية الوطنية لم تعرفها شعوب شرق المتوسط قبل الإستعمار . ولولا الاستعمار ما كان لدينا طبقة بورجوازية تقود الثورة ضد الإستعمار، وطبقة عمالية تنادي بالإشتراكية، بل وما كان لدينا مفكرون من مثل سمير أمين وأمثاله.
العيب الرئيسي لدى أصحاب نظرية الإعتمادية هو أنهم يبنون كل تنظيراتهم عبى اعتبار أن التناقض بين الدول الرأسمالية وشعوب دول العالم الثالث هو التناقض الرئيس وليس التناقض بين الرأسماليين والعمال . منظرو الاعتمادية لا يتجاوزون ماركس فقط الذي بنى نظريته بناءً على وحدة النظام الرأسمالي بل استولدوا نظيرتهم بعد انهيار العوالم الثلاث فيا بعد الحرب العالمية الثانية واختفاء كل التناقضات التي رافقتها فبن تلمس تنظيراتهم الأرض بل ظلت معلقة في الهواء .

نظرية الإعتمادية التي افترضت التنمية الاجتماعية بدون الاعتماد على المركز الإشتراكي أو الرأسمالي فلم تجد وسيلة للتنمية في دول العالم الثالث المتخلفة سوى الفلاحة !! يبدو أن السيد سمير أمين لم يعتبر من إدارة بول بوت الهمجية في كمبوديا الذي خطط لبناء الشيوعية عن طريق الفلاحة.
الفلاحة وسيلة إنتاج بورجوازي ولا تنتج فائض القيمة ولا تراكم الأموال , الفلاحة كانت وسيلة الإنتاج الوحيدة للنظام الإقطاعي . تكامل بناء النظام الإقطاعي قبل القرن العاشر وانتهى مع نهاية القرن الثامن عشر، أي أنه استمر ثمانية قرون دون أن يتطور من داخله قيد أنملة . ليس الأقنان هم الذين أطاحوا بالنظام الإقطاعي بل هم الأقنان الذين هجروا الفلاحة ليعملوا في الصناعات البورجوازية الصغيرة.
الخطأ الفاحش الذي انطوت عليه نظرية الإعتمادية القاضي بتطور الأطراف (Peripheries) بالإعتماد على الذات جرّ سمير أمين لاقتراف خطأ أكثر فحشاً كدعوته الأطراف المتطورة حسب تصوره للقيام بثورة اشتراكية عالمية تحاصر

المراكزالتي رفضت التحول إلى الإشتراكية – تنتفخ ذات سمير أمين لحدودها القصوى عندما يتراءى له نجاحه في مغالبة ماركس ؛ من يتعاطى الأفيون يستشعر قمة السعادة وأنه صاحب السطوة العليا في محيطه .

معارضتنا لمشروع سمير أمين الخنفشاري تنطلق من حقيقتين..
الأولى وهي أن سمير أمين لا يعلم ما الذي اعتور مشروع لينين في الثورة الإشتراكية العالمية بعد أن حقق نجاحات ما زالت محل إعجاب العالم ؛ ولا يجوز لكائن من كان أن يقترح مشروعا اشتراكياً مختلفاً عن المشروع اللينيني قبل أن يعرف أسباب انهيار الإشتراكية السوفياتية وسمير أمين لم يعرف قط.
الثانية وهي أن سمير أمين لم يتعرف نهائياً على النظام الدولي في ثمانينيات القرن الماضي وما يعدها فتنظيراته ظلت تعالج عالم العوالم الثلاث التي انهارت تماما خلال النصف الثاني من القرن العشرين فبات العالم عالماً مسطحاً وقد حلت البورجوازية الوضيعة محل كل الطبقات الغابرة والبورجوازية الوضيعة ليست طبقة إذ لا تنتج سبباً من أسباب الحياة .
سمير أمين الذي يحمل درجة الدكتور في الإقتصاد لم يتعرض يوماً لاستبدال الذهب غطاء لمختلف نقود العالم بالدولار المكشوف من كل قيمة . ولماذا يعتبر الولايات المتحدة قلعة الرأسمالية الإمبريالية بالرغم من أنها اليوم أكبر مستورد في العالم للبضائع ورؤوس الأموال وتستدين كل دقيقة مليون دولار كما أكدت مولولة نانسي بيلوزي رئيسة الكونجرس . ألا يدل هذا على أن الدكتور سمير أمين ليس أميناً على علمه خليك عن الماركسية !؟
المشرق العربي مبتلى بأدعياء الماركسية الذين لا يعلمون لماذا انهار الإتحاد السوفياتي بدءاً بياسين الحافظ والياس مرقص في سوريا وحسن حمدان في لبنان وسمير أمين في مصر.